كلامٌ عن لامارتين كخطيب

لجناب دبتري افندي خلاط

ليس قصدي بهذه التوطئة ان اذكر ترجمة هذا الشاعر المفلق آية البيان وعنوان البلاغة وسحبان الفصاحة فانّى لقلمي الظالع ان يدرك شأوَ صيتهِ الضليع وكيف يستطيع باعي القصير ان يحيط بدائرة معارفهِ الفسيحة وجلُّ ما انطاول الى نشرهِ واستغفر منهُ بهذه اللفظة بحيث لا ينشر سوى ما انطوى ولامارتين وان طواهُ اللحد وابلاهُ الثرى منشور الذكر خالد الصيت اقول وجلُّ ما انطاول الى نشرهِ شيءٌ يسيرٌ من وصفهِ فقد كان سيدًا والشعر رقًّا له طوع بنانهِ ساحرًا برقي العقول لا بالرُّقية بل بالمعاني قوي البديهة حاضر الفطنة سريع الارتجال يسابق اللسان فيهِ الجنان صائغًا نقادًا جواهر المعاني فيصوغها عقودًا ثمينة فارسًا ياتي موضوع الخطاب عنوةً ثم يحمل عليهِ حملة فارس خبير بقود الزمام لطيف الشمائل والحركات متفننًا في الاساليب حماسيّ المنطق بالفاظ منعشة كانها الراح تُصبُّ في كؤوس صدور السامعين وانقًا من قوة نفسهِ وفعل بيانهِ فما كان يدرج في الخطابة كامثالهِ بل كانت المعاني تتطاير من عش افكارهِ وكان الكلام يجري من فيهِ جري سفينة مشرعة على سطح بحيرة هبَّ عليها النسيم فسارت سيرًا لطيفًا واختصَّ بنطق نقيّ فنّان يكاد يطلق عليهِ اسمهُ لاختصاصهِ بهِ دون سواهُ ينطلق من صدرهِ انطلاق الالعاب النارية المشوَّقة باكثر الالوان المنيرة فيدهش البصائر والابصار

ومن الغريب انهُ لم يخض عباب الخطابة عن صغر ولم يتعوَّد مسالكها الوعرة منذ الحداثة بل اقتحمها في السنة الخامسة والاربعين من عمرهِ مستسهلاً صعابها فهدأت لهُ امواجها ودانت لهُ اقاصيها ولا حرج عليهِ فانهُ لم يقل الشعر كاسبًا ولم يجد القول راغبًا فنضل من تنتق الحيلة لسانهُ وتنجع الرغبة بنانهُ وتعوَّد ارتجال الشعر منذ نعومة اظفارهِ فكان يندفق بالاشعار العالية الصوَّر الرائقة المعاني تدفق الينبوع الشائع في ذروة الجبل بالسلسبيل الرائق والزلال الصافي ولما كان شعرهُ منضجًا مرتجلاً كالحديث كان حديثهُ او خطابهُ مماثلاً لشعرهِ ولذا كان هو الوحيد بين قومهِ شاعرًا وخطيبًا

وكان طويل القامة ازرق العينين ضيق الجبين بارز الجبهة رقيق الشفتين نبيل المنظر رشيق الحركة ظريف اللباس اديب الحديث ولوعًا بقيادة الشهرة هائمًا بحب المجد راغبًا في نوال رضى الامة وكان كلما صفقت لهُ الايدي استحسانًا ازداد نهمًا بالفصاحة ومتى بلغ الثناء الى

نسامى عنهُ كانما المديح جناح يرفعهُ الى عليٍّ او شرابٌ منهُ لشهيَّة فريحتهِ وكان في بعض الاحيان يمدُّ ذراعيهِ وهو على المنبر كباز ناشرٍ جناحيهِ فينسى وجودهُ في مقام الخطابة ومجال السياسة فترتفع نبرتهُ الى الافق المنير ويشتعل تصوُّرهُ بالخيلات الشعرية والمعاني البديعة من وصفٍ ومجاز وتوريةٍ وتشبيهٍ تنبعث اشعتها في عقول السامعين فتبهرهم من نبرتهِ الوقَّادة وتسلُّط مقاليد القيادة وكان طوراً يسجع بلفظهِ ثمَّ يموج اذا عورض فتجرف فصاحة المعترض كسيلٍ تدفق بالمياه ولقي سدًّا فدفعهُ

لو اردت ان اسرد لعمًّا من خطبهِ النفيسة اضاق بي المجال فاكتفيت عنها بواحدة لائقة بمباحث المقتطف لابسة حلَّةً منسوجة على منوال مقالاتهِ موضوعها تأييد العلوم الادبية عارض بها العالم العلَّامة اراغو المستنصر للعلوم التعليمية القائل بافضليتها على العلوم الادبية وبوجوب توجيه انظار التلامذة الى الاولى لان عائدها موصول بالنفع المادي الصريح وان الواسطة لبلوغ هذه الغاية انما هي تعليم العلوم التعليمية مطولاً في المدارس والعلوم الادبية على منهج وجيز وكان رأي اراغو مخالفاً لرأي الوزارة اذ ذاك (سنة ١٨٣٧) فلما انتهى اراغو من خطبتهِ في مجلس النواب اومأ الوزير الخطابر الشهير كيزو الى لامارتين بالقيام الى المنبر فوقع انتقادهُ على خبير وولَّى القوس باريها وللحال نهض لامارتين وقال مرتجلاً

سادتي

لا اروم في ردِّي على العالم الشهير والخطيب البليغ خبر من حمى العلوم التعليمية بسيف بلاغتهِ القاطع ان اجعل تفاوتاً بينها وبين العلوم الادبية او ارجح الواحدة على الاخرى في ميزان التعليم وغاية ما اتمناهُ ان لا يكون شقاق او خلاف بين هاتين القوَّتين الخادمتين العقل البشري بل ليكون تعاضدٌ بينهما تشتدُّ بهِ قواهما فتصلان بالتوازر والتعاون مع بعضهما الى اجتياز المصاعب وبلوغ ذروة الكمال فالعلوم عناصر الفكر والادب مجالي نورها ولما سمعت الآن خطيباً يذكر افراد من اجتمعت بهم هاتان القوتان فاوصلتهم الى الكمال مثل باسكال وديكارت ولبنتز وكوفيه علمتُ انهُ مرَّ على اذهانكم اسم عالم حديث معاصر لنا وابراد ذكرهِ بينهم ليس محصوراً الاَّ على نفس الخطيب الموسيو اراغو (استحسان)

ولكن اذ لم يكن ثمَّة منافسةُ اولية ومحاولةُ افضلية بين العلمين فلا ريب ان هنالك مشكلاً يقتضي حلَّهُ ومجدًا مستوجبًا النفات الحكومة في سنن التعليم لتعيين الكمّ والكيف بينهما واذا طُلب رأيي بهذا الصدد أجبت جوابًا قاطعًا. لو فرضنا انهُ حكم على الجنس البشري بفقدان احدى هاتين القوتين: الحقائق الرياضية او الحقائق الادبية: لسمحتُ بالاولى فديةً عن الثانية لاننا اذا

فقدنا العلوم الرياضية فهم تخطُّ الفنون والصنائع انحطاطًا عظيمًا ويبلى العالم المادّيُّ بالخسران لكن اذا خسر المرء الحقائق الادبية تعدم الانسانية ويهلك الانسان (تأثير عظيم)

لا مشاحة في ان الرسم الذي رسمهُ لكم الموسيو اراغو عن هيئة التعليم في مدارسنا وعن معايبها متقن في الصنعة والدقة وجدير بخبير مصوّر واني مثلهُ اشكو من محور التعليم العائد بنا القهقرى نحو اعصر اليونان والرومان ناقلاً الينا عوائدهم ومذاهبهم وشرائعهم وخرافاتهم التي قد مرّ عليها الف وثمانماية سنة او اكثر وعوضًا عن معارضتهِ بهذا الصدد امدُّ لهُ يد المصادقة واروم لكل عصرٍ علمهُ ولكل جيل مقالهُ وحقيقتهُ فلا يقنع الطفل بما علم اجدادهُ بل يفوقهم بعلم يومهِ لينشأ ويفتكر ويسير على خطة معاصريهِ وفكرتهم وسلوكهم ("ويعلم علم اليوم والامس قبلهُ")

واني على رأي صديقي في وجوب تلقين الولد عن صغر علم الطبيعة ومعرفة اسرارها وعلل معلولاتها واسباب تغيراتها وطوارئها المثبتة بفعل ظهورها قوّة العلم المجرّد ولا يزال الانسان يكتشف بالعلوم التعليمية سرًّا بعد آخر من اسرار الكون وكلّما اكتشف سرًّا تقرّب من صاحب الاسرار وعالم الخفايا جلّ جلالهُ خطوةً كراقي السلّم يتقرّب من المقيم على اوج سطحها كلّما صعد درجة

تروني يا سادتي غير نافٍ رأي الموسيو اراغو بهذا الصدد بل مثبتًا لهُ وقد تسمت من نفس الموضوع راتحةً للشعر والفصاحة اقول هذا ولو ساء صاحبي الموسيو اراغو نسبتي الشعر للعلم . وقد كنت منذ امدٍ غير بعيد اقرأ كتابًا للفلكي هرشل فسرى بي احساسٌ شعريٌّ قلّما شعرت بمثلهِ على اني لم اكن وقتئذٍ بالسن المناسب لتبول مثل هذا التأثير ولما اقرأ تأليف الموسيو اراغو عن الاقمار والنجوم يستولي عليّ هذا الشعور عينهُ فتحدثني نفسي ان هرشل واراغو شاعران مجيدان (استحسان)

لقد بيّنت وجه الاتفاق بيننا وها اني مورد الآن اوجه الاختلاف فارجو من المجلس آذانًا مصغيةً تكرمًا منهُ بالتفاتٍ خصوصي لما اذكرهُ . هل يجب ان يلقّن الطالب العلوم التعليمية والصنائع والفنون منذ الحداثة مجرّدةً اي قبل ان يهذّب بالعلوم الادبيّة ويتدرّب على نسقها وهل يقصدون ان تعليم الصنائع والفنون بالمدارس يجب ان يكون بوجه الحصر مانعًا لدرس اللغات التي تعدُّ وهما ميتة واحسبها خالدة (استحسان)

ثمّ اسأل حضرات المناظرين بايّ صفة يخوضون الموضوع لا شك انهم يجيبونني بصفة كونهم سياسيين مشرعين فبناء عليهِ اسألهم ما هو الولد في نظر المشرّع والرجل السياسي . الجواب

انهُ حيٌّ الوف مخلوق ليعيش بين ذويهِ عضوًا مفيدًا في جسم هيئة الاجتماع وفردًا معدودًا من افراد الامّة المنتمي اليها لا بدَّ لهُ من علاقات بما يحدق بهِ وصلات بالخلق القريبين منهُ والامتزاج بافكارهم واخلاقهم . وكلما كان وجودهُ مفيدًا في مرتبتهِ بين منازل هيئة الاجتماع حسنت حالها وحالهُ وسادا النجاح فهذا نصيب الولد من حكم الاجتماع الانساني وهذه الحقيقة جليَّة لكل ذي رأي فلا اعتراض عليها ونتيجتها لزوم التربية السويَّة لعموم الاولاد ليكونوا سواء كاسنان المشط

نعم يجب على المشترع ان ينظر في توحيد التعليم وفي تمكين الائتلاف بين الاولاد المعتدين ان يكونوا معاصرين وطنيين ذوي جنسية واحدة مهما اختلفت بهم درجات هيئة الاجتماع التي تلجيء كل فرد منهم الى العناية والالتفات الخاص لهيئتهِ واذا غضَّ النظر عن تعليم الفتيان على مبادئ سوية ادبيَّة لا ينتظم عقد الاجتماع بحب الوطن الذي هو ثمين بوحدة الامّة ومكين بالالفة العائلية بل تسبك الفتيان في قوالب منفردة بعضها عن بعض لا تجمعها حاسَّة الوطنية ولا يضمها ذراع الالفة كانهم غرباء في منزل ابيهم . وجحود في معبد دينهم (ما اجدر هذه الآراء بمدارسنا في سوريا ومصر فان وحدة التعليم على مبادئ سويَّة مفقودة منها وكيف يتمُّ الوفاق بين شبابنا وقد تنوَّعوا اقاويق الخلاف في المبادىء بمدارس مختلفة المبدإ والجنسيَّة والمذهب وهل نرى قبل ان نوارى الثرى مدارس على طرز مدرسة كفتين وطنية المبدإ حرَّة النزعة يتسع نطاق علومها باتساع دائرة طالبيها وعضد الفضلاء لها)

يجب ان يرضع الفتيان حال دخولهم عالم الحياة لبنًا واحدًا فيتكوَّن دمهم من ذرَّات متماثلة وتنمو جبلتهم من طينة واحدة ويقتضي ان يغتذوا من طعام تعليم ادبي واحد لكي يعيشوا في اتفاق الافكار والاعمال والفضائل والشمائل وانتظامهم فيها هو غاية ما ترجوهُ الحكومة الحرَّة والمبادئ السليمة

فان كان (لسوء الطالع) لا بدَّ لنا من الامتياز المادي لتألُّف الكون من طبقات متضدة بعضها فوق بعض أفلا يجب ان نضع للامتياز الادبي حدًّا ضمن دائرة الامكان ويسعفنا على ذلك الدين القائل بتعليم كل بنيهِ باسرة واحدة

اما تعليم اللغتين اليونانية واللاتينية بنوع لا يستغرق اوقات التلاميذ فلا استهجنهُ اولاً لشيوعهِ عند سائر الامم المتمدنة ثانيًا لانهما من امهات اللغات الاوربية الحديثة ثالثًا لان التمدن الحديث والصناعة الجديدة حصلا عندنا على اثر هاتين اللغتين فان بقايا امتيهما رقَّت الفنون الجميلة عندنا وترجمة تآليفها وسعت دائرة معارفنا وأيقظتنا من سنة الغفلة وأخيرًا ان قراءة كتبهما من افيد الامور لطلبة العلم فترتسم في اذهانهم صور افرادهم المشهورين في الفضائل

وينقش التأثير على الواح عقول الاولاد فيتمثلون باعمالهم ويشبون على حب الاقتداء بهم ويغو برياض البابهم حبُّ الفضيلة المغروس بها ومتى نما هذا النبت ازهر بالراحة واثمر بالكمال ولا ريب ان كلاً منا تأثر في صغره من تاريخ احد هؤلاء المشاهير واخذهُ مثالاً لنفسهِ فالاكمل بيننا من كان مثالهُ كاملاً في الصفات والاعمال انتهى

شذرة من التعليم البوذيّ

سؤال أبوذيٌّ انت

جواب نعم انا بوذيٌّ

س من هو البوذيُّ

ج هو الذي يعترف بانهُ تابعٌ لربنا بوذه

س هل كان بوذه الهًا

ج كلاَّ

س هل كان انسانًا

ج كان انسانًا في الصورة ولكن في الحقيقة ليس كسائر الناس اي انهُ في اخلاقهِ وعقلهِ كان فوق جميع البشر الذين كانوا في زمانهِ والذين جاؤا بعدهُ

س هل كان اسمهُ بوذا

ج كلاَّ . بل هو اسم لحالة من حالات الروح

س وما معناهُ

ج معناهُ المُلهَم أو الحاوي الحكمة كلَّها

س هل عرف بوذه سبب تعاسة البشر

ج عرفهُ اخيرًا : فكما ان نور الشمس المشرقة يبدّد ظلام الليل ويجلو كل شيء للباصرة هكذا نور العلم اشرق في روحهِ فرأى جليًّا اسباب اوجاع البشر والواسطة للتخلص منها

س هل كان بلوغهُ الى هذا العلم بمشقةٍ عظيمة

ج نعم لانهُ لزم لهُ ان يتغلّب على كل النقائص والاميال والشهوات التي تمنعنا من أن نرى الحقيقة

س ما هو النور الذي يستطيع ان يبدّد جهلنا ويبعد عنا جميع آلامنا

ج هو معرفة الحقائق الأربع العظمى كما يسميها بوذه